دور القرآن الكريم في الحفاظ على اللغة العربيّة وديمومتها

حسين الساعدي

الملخص:

منذ أن بزغت شمس الإسلام على الجزيرة العربيّة راحت العرب تعتنق الدين الجديد افواجاً افواجاً، فتجلت هداية القرآن لهم بمعانٍ ما كانوا يعرفونها ، بل حتى لغتهم كانت عاجزة عن ادراكها والدلالة عليها، فعبر عن هذه المعاني بالفأظ ازدادت بها اللغة العربية نماء وراحت تنهل من غزارة المادة القرآنية وبراعة ونضارتها أساليبها وسموبلاغتها واتساع نطاق مذاهب بيانها وكثرة أغراضها وحقولها الدلالية في مجالات شتى أدّت إلى اضفاء اليسر والمرونة والرقة والتهذيب على اللغة العربيّة بعد ماكانت تعجُ في بعض النواحي بالخشونة والغموض وكثرة الغريب والتعقيد على الصعيد اللفظ والمعنى. فكان تأثير القرآن على اللغة العربية لاينحصر اطلاقاً في موضع خاص بل اشتمل على كل مناحي اللغة العربية وآدابها ومن آثاره توحيد اللغة العربية وصهر اللهجات في بوتقة لغة قريش التي أنزل الله القرآن الكريم بها ومن آثاره أيضاً إنّه كان سبباً في انتشار علوم شتى كالنحو لدفع اللحن عنه والبلاغة لبيان اعجازه، واللغة والأدب لتفسير غريبه.وعلى إثر لغة القرآن ارتقت اللغة العربية وسماء أدبها بالقرآن الكريم.فاذا كانت اللغة العربية قبل الإسلام تبحث عن هوية لها-محاولة إستيعاب ما ثبت بين لهجاتها من خلافات صوتية؛فإنّ القرآن الكريم بلور تلك اللغة بما قدّمه من نموذج فريد فى أسلوبه،و مضمونه على حدّ سواء.ولقد كان بين لغة القرآن و اللغة العربية ارتباط وثيق وصلب مما مهّد الطريق لأن تكون اللغة العربية، اللغة المؤهلة لاستيعاب القرآن ومعارفه الجمّة ممّا عزز من قوة اللغة العربيّة وكفل لها الصمود والخلود بقوله تعالى:« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (الحجر:٩) ومنذ ذلك الحين إلى يومنا هذا أدت رسالتها في الحياة خير أداء وأصبحت وثيقة الأواصر بهوية وحضارة هذه الأمة العظيمة .وواكبت تطوّر تراثها الثقافيّ فى العلوم و الآداب و الفنون و التشريع و الفلسفة،و تعهّدت نقله من جيل الى جيل عبر العصور فهى قلب الأمّة النابض و جهازها المحرّك في كل عصر.

فهذا المقال عبر المنهج التوصيفي والتاريخي بصدد الإجابة عن الإسئلة التالية. اولاً: ماهو أثر القرآن الكريم في انماء اللغة العربية ؟ ثانياً :ما هي العناصر الفاعلة التي إدت إلى اتساع ثراء الغة العربية لكي تكون مؤهلة لتصبح لغة القرآن والدين والإنسانية والعلوم الإسلامي الأخرى.؟

المقدمه:

يتبين لنا من خلال دراسة علوم اللغة العربية و تاريخ الادب العربى أن الذي حافَظَ على اللغة العربية و خلودها من بين لغات البشر الأخرى وقوتها وجزالتها وعظمتها هو نفس القرآن الكريم، وهو ليس بالأمر السهل.بعد العصور المنصرمه نجد هذا الكتاب الكريم مُوَّحَدٌ في الإفهام والتفهيم بين أبناء لغة معينة سواء كان هذا الكلام علمياً أو لغوياً في العلوم، بخلاف ما لو قرأنا كتاباً ما في أنواع اللغة الأُخرى غير العربية قبل القرون المنصرمة، وبين أنْ نقرأه الآن بنفس اللغة نجد من الصعوبة بمكان أنْ تحافظ تلك اللغة على معانيها وقوتها وجزالتها ... بين تلك الفترة السابقة والمعاصرة، ولو كان أصحاب هذه اللغة أكبر قوة في العالم، بل حتى لو كانت الفترة ليست كالقرن والقرنين، بل وحتى مثل الخمسين سنة فنجد أن اللغة تفقد الكثير من خصائصها ومميزاتها ومعانيها عدا العكس ما هو عليه في دور القرآن الكريم في حفظ اللغة العربية وديمومتها واستمرارها في الحفاظ على حيويتها الى يومنا الحاضر.علماً أن علوم الأدب مستقاة من القرآن الكريم والقرآن أرضاً خِصبة للاستفادة منه في النظم والقواعد، ولا زالت علوم اللغة في توسع أمثال: فقه اللغة ونحت اللغة ... بالأخير القرآن له شأن ودور عظيم ترعرت وبُنيت عليه اللغة العربية وعلوم اللغة والأدب، وليس العكس لأنَّه- القرآن- بُنيان وحياني إلهي .

ما من شكّ أن أهمّ و أبرز خصائص اللغة العربية كونها لغة القرآن الكريم، و

السنّة النبوية الشريفة. و بعبارة أخرى: هى اللغة التى اختارها الله تعالى لتكون لغة وحيه للبشرية جمعاء،«و من هنا كان اهتمام المسلمين بهذه اللغة، و اعتناؤهم بها كاعتنائهم بعقيدتهم الإسلامية،لا لأنها إحدى مقوّمات الإسلام فحسب،بل لأن الله تعالى شرّفها،و خلّدها بخلود كتابه،حيث قال فى محكم كتابه « إنّا أنزلناه قرآنا عربياً»(١) إضافة إلى أنها تحمل فى مضمونها علم رسولهم،وفقه علمائهم و حضارة أمتهم وثقافتها»(٢) و نضيف لما تقدم ان نزول القرآن باللغة العربية هو«مظهر رائع لا متزاج الشكل العربى بالمضمون الإسلامى،و بالتالى:فإنّ الطعن فى أحدهما ما هو إلاّ طعن مزدوج يصيب الأمّة العربية بقدر ما يصيب الإسلام»(٣) و إذا كانت اللغة العربية قبل الإسلام تبحث عن هوية لها-محاولة إستيعاب ما ثبت بين لهجاتها من خلافات صوتية؛فإنّ القرآن الكريم بلور تلك اللغة بما قدّمه من نموذج فريد فى أسلوبه،و مضمونه على حدّ سواء. و إذا ما تجاوزنا ذلك كلّه و بحثنا فى صلة اللغة العربية بعلوم المسلمين، بعض ما أسداه القرآن الكريم،والرسالة الإسلامية للّغة العربية من فضل و معروف كبيرين: فاللغة العربية تعدّ أحد الصمادر المهمة لعلم أصول الفقه،لأن فهم القرآن الكريم،و فهم السنة النبوية(و هما المصدران الرئيسيان من مصادر التشريع)متوقف على اللغة العربية.

فقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب،و الرسول كان عربيا،يخاطب الناس بلسان عربى مبين.و من هنا فإن كثيرا من قواعد علم أصول الفقه،إنما هى مستمدة من اللغة العربية.فضلا عن توقّف فهم نصوص التشريع على فهم اللغة العربية،فاللغوى يبحث فى الألفاظ من حيث وضعها و اشتقاقها،و الأصولى يبحث فيها من حيث دلالتها،و استنباط الأحكام منها،و ضبطها تحت قواعد كليّة. مثال ذلك:«ان كلمة(كل)إذا أضيفت إلى نكرة فإنها تفيد عموم الأفراد،كما فى قوله تعالى:« كل نفس ذائقة الموت»(٤) و ان أضيفت إلى مفرد أوجبت عموم أجزائه،حتى فرّقوا بين قولهم:كلّ رمّان مأكول و بين كل الرمّان مأكول بصدق الأول،و كذب الثانى»(٥) و إذ أدركنا ضرورة فهم اللغة العربية لمن يتصدى لمحاولة استنباط الأحكام الشرعية،فإن معنى ذلك احتياج الفقيه المسلم إلى تعلم اللغة العربية،بل و اتقان مفرداته و قواعدها،سواء أكان هذا الفقيه صينيّا،أم كان باكستانيا،أم منغوليا،أم تايلنديا،أو إيرانيا.

تكمن إشكالية هذا البحث في الإجابة على التساؤلات التالية

١. ماهو أثر القرآن الكريم في انماء اللغة العربية ؟
٢. ما هي العناصر الفاعلة التي إدت إلى اتساع ثراء الغة العربية لكي تكون مؤهلة لتصبح لغة القرآن والدين والإنسانية والعلوم الإسلامي الأخرى.؟

أهداف الدراسة

١. دراسة تأثير القرآن الكريم فى اللغة العربية، حيث كانت اللغة فى الجاهلية وعرة وخشنة فرققها القرآن ونماها بحيث اكتسبت الألفاظ معانى لم تألفها من قبل وبذلك اتسعت مذاهب بيانها وكثرت الأغراض التى يتسابق اليها فرسان الخطابة والكتابة
٢. أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية و آدابها فأوضحت أثرها فى توحيد اللغة و من أثره أنه كان سبباً فى علوم شتى مثل النحو لدفع اللحن عنه و البلاغة لبيان اعجاز واللغة و الأدب لتفسير غريبه و القراءات لضبط القراءة وحسن التلاوة.
٣. حفظ القرآن الكريم للغة العربية بضبط قواعدها و أصولها و إغنائها بالشواهد والأمثلة وهذا يكسبها قوة تحفظ وجودها وديمومتها يعمل على سعتها وتطور دلالتها.

١-أصالة اللغة العربية

تعود اللغة العربية في أصولها إلي أصل واحد، فقد أكدت أحدث الدراسات الأثرية والتاريخية واللسانية، ظهور لغة ساميَّة مشتركة بين شعوب ممالك الهلال الخصيب ومصر، منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد. واللغة العربية الفصحى - التي أصبحت اللغة الأدبية للجزيرة العربية - منبثقة عن تلك اللغة.. والخلاف بين لهجاتها، كان خلافاً في لفظ الكلمات المكتوبة. ومن ذلك ما جاء في كتاب تاريخ اللغات السامية (لإسرائيل ولفنسون): "والواقع أنه ليس أمامنا كتلة من الأمم ترتبط لغاتها بعضها ببعض، كالارتباط الذي كان بين اللغات السامية "(٦)، وهذا يدلنا على كثرة الجذور اللغوية المشتركة بين عائلة اللغات السامية.. فإذا علمت أن العربية والعبرية من أشدهما تشابهاً - إن

لم يكونا أشدهم - على الإطلاق، علمت كثرة الجذور اللغوية التي تشتركان فيها.

والتشابه يتعدى الجذور المجردة إلى التشابه في الكلمات بعينها، يقول) ولفنسون): "على أن هناك كلمات مشتركة فى جميع اللغات السامية، يرجَّح أنها كانت مادة من اللغة السامية الأصلية".

وتعد اللغة العربية من أقدم اللغات السامية، فهي تسبق السريانية والعبرية لأن العربية تتوافق مع الآكدية التي سبقت السريانية والعبرية، وكانت أقل توافقا معها، مما يدل على قدم اللغة العربية وعلى عروبة اللغة الأكادية(٧).

وهي مازالت حية حتى يومنا هذا، ويرجع الفضل إلى القرآن الكريم الذي حافظ على أصل اللغة الأم(لغة الضاد) وذلك رغم تعرض البلاد إلى غزو الكثير من الأقوام الغريبة في ثقافاتها ولغاتها.

٢-اللغة العربية لغة القرآن الكريم

ارتبطت اللغة العربية بفضل الله تعالى بكتاب سماوي مقدس هو القرآن الكريم، الذي نزل بلغة عربية سامية، والذي أجمع القدماء، من الفصحاء والبلغاء، بعد طول جدال ونقاش، على وصفه بأنه ذو حلاوة وطلاوة، وأنه يعلو ولا يُعلى عليه. وهذا يعني أن اللغة العربية، في مسارها التاريخي المتطاول، قد ارتبطت فكرياً ووجدانياً بالأنماط اللغوية الفصيحة التي أرسى قواعدها هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وإضافة إلى ذلك، فقد ارتبط الإنسان المسلم بقرآنه لغة وفكراً ارتباطاً عقدياً لا مجال للبحث فيه هنا، نظراً لكونه أمراً بدهياً.

ومن هنا اكتسبت اللغة العربية القداسة النورانية والخلود السرمدى قال الله تعالى« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»(٨) فبحفظ الله تعالى كتابه يحفظ اللغة العربية، فهى باقية ببقائه إلى يوم الدين، ويمكننا ذكر ما إحدثه القرآن الكريم فى اللغة العربية من آثار فى مايلى:

١-. المحافظة على اللغة العربية من الضياع

ومن آثار القرآن أيضاً أنه حوّل العربية إلى لغة ذات دين سماوي باهر ، وبذلك أحل فيها معاني لم تكن تعرفها العرب من قبله ، ولا كانت تعرف العبارة عنها ، وعادة يقف مؤرخو الأدب عند ألفاظ ابتدأها ابتداء مثل : الفرقان والكفر ، والإيمان والإشراك، والإسلام والنفاق والصوم والصلاة والزكاة والتيمّم والركوع والسجود ، وغير ذلك من كلمات الدين الحنيف ، ولكن من الحق أن المسألة لم تكن مسألة ألفاظ فحسبُ ، إنما كانت أيضاً مسألة دين جديد ، له مضمونه الذي لم يكن العرب يعرفونه ، من الدعوة إلى عبادة الله واشتقاق الدليل عليها وعلى وحدانيته من خلق السماوات والأرض و من تاريخ الأمم وما يعي من عظات من تاريخ الأنبياء وما يحمل من عبر، ومن تقرير البعث والنشور وبسط صور الثواب والعقاب مستعيناً في ذلك بالوجدانات الغزيرة وبالعقول وتمييزها ، وما ينبغي أن يتهيأ لها من صواب الرأي ، وإنه ليترقى دائماً من معرفة الأذهان ، وفي خلال ذلك يشرّع للناس ما ينبغي أن تكون عليه حياتهم من نظام في أسَرهم وفي مجتمعهم بحيث تسودهم الرحمة والعدالة كما تسودهم أخوة عامة ، يبذل فيها الغني للفقير من مال الله ما يغنيه ، أخوة لا أسود فيها ولا أبيض ولا عربي ولا عجمي ، وكل هذه الدعوة الكريمة التي نزل فيها مأة وأربع عشرة سورة تُعد ابتداء ، بعباراتها وبمعانيها ، ونستطيع أن نقول إن كل ما كسبته العربية بعد ذلك من عظات عند الحسن البصري وغيره من كبار الواعظين إنما هو من فيض القرآن ومعينه الغزير.

وبمرور الزمن أخذت تتكوّن حوله علوم كثيرة ، ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ما كسبه العرب من معارف إنما كان بفضل ما غرس فيهم القرآن من حب العلم ، أصوّر هنا ما انبثق حوله من علوم مختلفة كعلم التفسير وعلم أسباب النزول وعلم نحوه وإعرابه وعلم عامّه وخاصّه مما هيّأ لظهور علوم البلاغة ، ومن العلوم المهمة التفرعة علم الفقه وأصوله ، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن العلوم الإسلامية كلها إنما قامت لخدمته ، فهو الذي هيّأ بقوة لنهضة العرب العلمية.(٩)

٢-تقوية اللغة ونموها نحو الكمال

لا يشك عاقلان فى كون القرآن الكريم مصدر طاقة و قوة وحيوية للغة العربية و لولا هذه الطاقة الربانية و القرآنية ما كانت لتصل إلى ما وصلت إليه بما وهبها الله من المعانى الفياضة، و الألفاظ المتطورة والتراكيب الجديدة والأساليب العالية الرفيعة يقول العلامة الرافعى :نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معاً، فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه إذ النور جملة واحدة، وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه من طبيعته، وهو في كل جزء

من أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبدلت الأرض غير الأرض، وإنما كان ذلك، لأنه صفا اللغة من أكدارها، وأجراها في ظاهره على بواطن أسرارها،ا فجاء بها في ماء الجمال أملأ من السحاب، وفي طراءة الخلق أجمل من الشباب،ثم هو بما تناول من المعاني الدقيقة التي أبرزها في جلال الإعجاز، وصورها بالحقيقة وأنطقها بالمجاز، وما ركبها به من المطاوعة في تقلب الأساليب، وتحويل التركيب إلى التراكيب، قد أظهرها مظهراً لا يقضى العجب منه لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصته، ولهذالها حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود لأنها هي لغتهم التى يعرفونها.(١٠)يقول المستشرق أرنست رينان: من أغرب ما وقع في تاريخ البشر، وصعب حل سره، انتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ بدء، فبدأت فجأة في غاية الكمال، سلسة أي سلاسة، غنية أي غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها إلى يومنا هذا أي تعديل مهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة، من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمّة من الرحل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم، ومن يوم علمت ظهرت لنا في حلل الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أي تغيير يذكر، حتى إنه لم يعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة، ولا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى.(١١) ويقول بروكلمان: «بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعاً مؤمنون بأن اللغة العربية هي وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت اللغة العربية منذ زمان طويل رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى التي تنطلق بها شعوب إسلامية.»(١٢) وقد أشار الأستاذ الدكتور حسين ضياء الدين عتر فى هذا الصدد إلى بعض الآثار القرآنية الأخرى على اللغة العربية، نرى ذكرها تكون فائدة للطلاب اللغة العربية:

١. استنقذ القرآن الكريم لغة العرب من شتات اللهجات القبلية الكثيرة، فعمل على تقارب اللهجات وائتلاف ألسنة أهلها بالنطق بأفصح لهجات العربية.
٢. هذب القرآن اللغة العربية من الحوشي والغريب فأحالها إلى لغة صافيةشفافة جذابة...،
٣. أدخل القرآن الكريم على العرب معاني جديدة ما كانوا يعرفونها ولايعرفون التعبير عنها.(١٣) فهناك ألفاظ ابتدأها القرآن الكريم ابتداء كالإسلام والإيمان والفرقان والشرك والكفر والنفاق والصوم والصلاة والزكاة...، والزكاة...، وهناك المضامين الحسية الشيقة الخالدة، مثل لفت النظر إلى ملكوت السموات والأرض، واشتقاق الأدلة العقلية الملزمة مثل البراهين الدالة على وحدانية الله وعظمته و قدرته ووجوب عبادته وحده لا شريك له...، فالقرآن العظيم نزل في مائة و أربع عشرة سورة أنزلها علام الغيوب بياناً فريداً بديعاً معجزاً في عبائره ومعانيه، في شكله و محتواه على حد سواء...،
٤. اعتاد العرب على مواسم وأسواق كانوا يقيمونها في مواطن من جزيرتهم. حتى صار كل سوق مجمعاً أدبياً لغوياً رسمياً له مُحَكِّمونَ تضرب لهم القباب. وكثيراً ما تنشب بين فرسان البيان منافسات حامية الوطيس ينقسم فيها أهل الأدب إلى جهات متخاصمة...،وتتشابك فيها الحجج والدلائل...،دون أن يقدم التحكيم فيها قولاً حاسماً يفض المنازعات البلاغية إذ كانوا يعتمدون على الذوق والفطرة السليمة، ولم يكونوا مجمعين على نموذج أدبي أعلى يتخذون مقياساً في تمييز الأفصح والأبلغ، وبالتالي لم تكن لديهم قواعد وضوابط بيانية يجديهم الرجوع إليها فتيلاً فكانوا يذهبون في ذلك مذاهب شتى. فهل لهذا التفرق من تلاق !؟ لما فاجأهم القرآن بسلسبيل بيانه وعقدت الدهشة ألسنتهم من تفوق بلاغته وجلالة مكانته؛ خضعت له أعناقهم واذعنت أذواقهم، وأيقنوا أنه لا سبيل إلى مجاراته...،فانقادت إليه ملكاتهم و سجاياهم وسارعوا ينهلون من بحربيانه...، وأقبلوا على دراسة ملامح الجمال الأدبي...،حتى استخلصوا منه قواعد البلاغة والفصاحة، فكان القرآن لهم المثل النموذجي الأسمى،والمقياس المثالي الذي أجمعت القلوب والأذواق على الركون إليه والاحتكام.
٥. لا تزال آثار القرآن البليغة تترى في

ألوان الأدب العربي؛ شعراً ورجزاً وحكمة وخطابة ونثراً. إذ ظهرت فيها جميعاً تعابير وصور، بعضها مقتبس من القرآن وبعضها يصطبغ بصبغته وينسج على منواله. أما الموضوعات فبعضها جديد بالكلية كالتصوف والزهد، وبعضها دخله التجديد والقوة والحيوية كالحماسة، لكن جميع الموضوعات تأثرت بالقرآن تأثراً بيناً لا مراء فيه إذ ظهرت فيها قيم جديدة كثيرة روحية وعقلية واجتماعية وإنسانية مستقاة من القرآن بحرص مرهف وتقديس ظاهر.

٦. سيطر القرآن على الملكات الأدبية واجتذب اهتمامها وعنايتها...،فلا جرم أن الفضل في نشوء علوم اللغة ونموها وازدهارها عائد إلى القرآن المجيد ذاته. فالقرآن هو الحاكم المهيمن على هذه العلوم، والكلمة منه حجة لها أو عليها و ليس لها من سبيل عليه وهذا أمر جلي واضح.

٧. أن القرآن هو جذوة حركة النقد الأدبي عندالعرب وأنه الباحث الرئيسي الموجه لها وللد ا رسات البلاغية كافة. فإن تأملت الدراسات النقدية ومقاييسها في فنون القول تجدها جميعاً قدخضعت للنهج القرآني الذي أظهرته دراسات إعجاز القرآن المبين، كما احتكمت إلى الشاهد القرآني فهو المثل الأعلى والمقياس النموذجي الرفيع. ومن نهجه ومنحاه يؤخذ فصل الخطاب فى التفاضل بين الأساليب.(١٤)

٨. نشطت دراسة تفسير القرآن ودراسة اعجازه البياني، تعمقت الأبحاث بحظ وافر في علم الذوق، فتجلى أثر القرآن في تربية الذوق الأدبي العربي. وانطلق علماء القرآن والبيانيون من النظر في جلال الربوبية وأثرها في القرآن إلى الطبع وأثره في الشعر، وإلى ملاحظة صورة النظم في النفس قبل التعبير كما أوردها الخطابي – فقطعوا في علم النفس الأدبي شوطاً، وإن لم يعرفوه باسمه الحديث. تؤكد لك ذلك بحوثهم في الأثر النفسي للتعبير وما يعتمد عليه من صور. فالصور البيانية في علم البيان تعتمد على التشبيه والاستعارة والكناية، وتتمتع فيها الألفاظ بخصائص حيوية تفيض بالإيحاء وترسم في الخيال صوراً تثير المعاني في النفس إثارة مؤثرة. وهكذا عنوا بتأمل سمات قوة القرآن في التصوير بتحريض جميع الحواس الإنسانية من سمع وبصر وحس وذوق وشم، حتى يثبت الصور في الخيال والادراك والوجدان.

٩. كلما أمعنت في دراسة النقد العربي وجدت نفسك مضطراً إلى مطالعة دراسات الإعجاز القرآني، وأدركت ان ملكة النقد إنما انتشت بذورها في صميم دراسات الإعجاز ونمت وترعرعت أغصانها في ظلال القرآن ورعايته فإن القرآن العظيم صاحب الفضل الكبير في تربية ملكة النقد الأدبي عند العرب وتطورها. وإن لأسلوبه الذي امتاز بالتفوق في روعة التعبير وجمال الأداء، أثراً بليغاً مبيناً في مقاييس الأدب وموازينه فقد أصبح الشاهدالقرآني هو الحَكَم الفصل بين فنون القول وأنماط الأساليب. فإن دراسات النقد العربي قد نهلت من القرآن المبين، وماتزال تروي رياضها النضرة منينبوعه الصافي الرقراق.

١٠. افتُتِن أدباء العرب بأسلوب القرآن وإحكام نظمه، وأجمعوا على إقبال عليه قديماً و حديثاً. ولا عجب! فإنك ترى العبارة منه أو الكلمة حين يقتبسها أديب تشع في سماء كلامه كالكوكب الساطع قال الجاحظ:« وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آيٌ من القرآن .فإن ذلك مما يورث الكلام والبهاء والوقار والرقة وحسن الموقع...» إن أسلوب القرآن البالغ الروعة ليس له نظير سابق ولا نظيرلاحق في اللغة العربية. فعلى سنته حاول الأدباء أن يصوغوا آثارهم الأدبية من شعر وخطابة وحكمة وأمثال، مهتدين بهدي ديباجته الكريمة وحاشيته الرقيقة و عباراته السلسة...، فظهرت في القرآن نتائج فريدة في اللغة والأدب والبلاغة والنقد، لم يحدث كتاب قط مثيلها في لغة من لغات العالم. تلكم ظاهرة أدبية فذة رائعة ومزية عظيمة عجيبة، امتازت بها العربية على سائر لغات العالم، لأنها جميعاً لم تشرّف بكتاب إلهي مبين كالقرآن العظيم.(١٥)

٣-صهر اللهجات العربية في بوتقة واحدة(اللغة العربية)

من المعلوم أن لجهات اللغة العربية

كانت مختلفة، تحتوي على الفصيح والأفصح، والرديء والمستكره، وكانت القبائل العربية معتدة بلهجتها حتى إن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف من أجل التخفيف على العرب في قراءته وتلاوته، ولا شكّ أن لغات العرب متفاوتة في الفصاحة والبلاغة، ولذلك نجد عثمان رضي الله عنه قد راعى هذا الجانب في جمعه للقرآن، وقال للجنة الرباعية: "إذا اختلفتم أنتم فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلغتهم" وما ذلك إلا لأن لغة قريش أسهل اللغات وأعذبها وأوضحها وأبينها، وكانت تحتوي على أكثر لغات العرب، ونظراً لكونهم مركز البلاد وإليهم يأوي العباد من أجل الحج أو التجارة، فقد كانوا على علم بمعظم لغات العرب بسبب الاحتكاك والتعامل مع الآخرين، ولكن لغتهم أسهل اللغات كما ذكرت، ينقل السيوطي عن الواسطي قوله: ".... لأن كلام قريش سهل واضح، وكلام العرب وحشي غريب" ولذلك حاول العرب الاقتراب منها، وودوا لو أن ألسنتهم انطبعت عليها حين رأوا هذا القرآن يزيدها حسناً، ويفيض عليها عذوبة، فأقبلوا على القرآن الكريم يستمعون إليه، فقالوا على الرغم من أنفهم: "إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وأسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه" ،ولم يزل المسلمون يقبلون عليه ويتلونه حق تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، حتى صاروا بفضل القرآن خير أمة أخرجت للناس، ينطقون لغة واحدة عربهم وعجمهم، وكان بذلك جامعاً للعرب والمسلمين على لغة قريش وما يقاربها، وليس بينهم هذا التفاوت والاختلاف في اللهجات كما كان قبل نزول القرآن، وبذلك دخلوا في مرحلة تاريخية فريدة هي توحد لغتهم وألسنتهم فيما بين بعضهم البعض بل وعلى مر العصور وكر الدهور.(١٧)وكما هو معلوم أن العرب كانوا متفرقين إلى الشعوب والقبائل قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان لكل قبيلة منهم لهجة خاصة في النطق بالكلمات، وكانت العرب تجتمع كل عام في سوق عكاظ ومواسم الحج ويحضرها عدد كبير من الخطباء والشعراء وفرسان البيان والشعر. وفي هذا المؤتمر السنوي التجاري والعلمي العام أفكارهم كانت تتلاقح ولا تتناطح، ويستفيد بعضهم من بعض بهذه الطريقة طرأت على هذه اللهجات زيادة ونقصان وتطور وتحريف إلى أن بزغ فجر الإسلام فأن أنزل الله عز وجل كتابه باللسان العربي المبين حتى أحدث هذا الوحي الإلهي الخاتم ثورة علمية ولغوية جديدة بين العرب، وسارعت العرب إلى اتباع طريقته في الفصاحة والبيان(١٨)

٤-تحويل اللغة العربية إلى لغة عالمية

لاشك أن اللغة العربية تتبؤأ مكانة عالية بين اللغات العالمية ، لأنها لغة القرآن الكريم ، والسنة الشريفة ، فهي تجمع بين أبناء الأمة العربية في وعاء لغوي واحد ، كذلك تعد – برأي- جميع اللغويين بمن فيهم الأجانب أنها تمتلك كل مقومات اللغة القادرة على استيعاب العلوم والفنون والآداب كافة ، أي أنها لغة الحضارة العالمية ؛ لهذا لابد من وضع آلية لغوية عربية شاملة تقوم على الاهتمام باستخدام العربية الفصحى المبسطة التي تستعمل في مجالات الحياة العلمية والعملية في أنحاء الوطن العربي والاسلامى ، والالتزام بسياسة لغوية واحدة ؛ خشية من عزوف أبناء اللغة العربية عنها إلى محاكاة لغة اللهجات العامية ، واللغات الأجنبية .

٥-تهذيب ألفاظ اللغة العربية، ونشوء علم البلاغة

ومن آثار القرآن الكريم أنه هذّب اللغة العربية من الحوشية ومن اللفظ الغريب ، فأقامها في هذا الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة ، ويكفي النظر إلى معلقة مثل معلقة لبيد أو إلى شعر قبيلة هذيل وديوانها المطبوع لترى كيف إنه اختط أسلوبا جزلاً، له رونق وطلاوة ، مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض من أقرب مسالكه. وهو أسلوب ليس فيه زوائد ولا فضول ، فاللفظ على قدر المعنى ، وكأنما رُسم له رسماً ، وهو لفظ لا يرتفع عن الأفهام ولا عن القلوب ، بل يقرب منها حتى يلمس الشغاف. ومما لا شك فيه أن القرآن هو الذي ابتدع هذا الأسلوب المحكم ، بل هذا الأسلوب السهل الممتنع الذي تلذ الآذان حين تسمع له والأفواه حين تنطق به والقلوب حين تصغي إليه ، هذا الأسلوب الذي يميّز عربيّتنا ، والذي استطاع أن يفتح القلوب حين فتح العرب الأمصار ، فإذا أهلها مشدوهون ، وإذا هم يهجرون لغاتهم المختلفة إلى لغته الصافية الشفّافة. واقرأ في قوارعه حين يتحدث عن البعث الحساب والعذاب وفي ملاطفاته حين يتحدث عن الرحمة والمغفرة أو حين يتحدث إلى رسوله فأنك ستجد الأسلوب دائماً مطرداً في جودة الأفهام وروعته مع

سهولة اللفظ ومتانته وسلامته من التكلف ، وانظر إلى قوله تعالى يتوعد المشركين وما ينتظرهم يوم يُبعثون : « ونُفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. وأشرقت الأرض بنور ربها ووُضع الكتاب وجيئ بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يُظلمون . وُفّيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون . وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ط حتى إذا جاؤوها فُتحت أبوابها وقال لهم خزنتُها ألم يأتكم رُسُلٌ منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ط قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين. »(١٩) ، وقارن بين ذلك وبين ملاطفته جلّ وعزّ لرسوله في سورة الضُّحى : « والضحى . والليل إذا سجى . ما ودّعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيماً فأوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدّث . » (٢٠) ، فلن تجد هنا ولا هناك كلمة متوعرة ولا لفظاً ضعيفاً ، إنما تجد روعة الأسلوب دائماً وجزالته وعذوبته ونصاعته ، مع دقة العبارات واستيفائها لمعانيها ، ومع الألفاظ المستحسنة في الآذان وعلى الأفواه، الألفاظ التي تغذي العقول برحيقها الصافي وتشفي القلوب والنفوس.

وهذا الأسلوب البالغ في الروعة الذي ليس له سابقة ولا لاحقة في العربية ، هذا الذي أقام عمود الأدب العربي منذ ظهوره ، فعلى هَدْيه أخذ الخطباء والكُتّاب والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بديباجته الكريمة وحسن مخارج الحروف فيه ، ودقة الكلمات في مواضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ، وبحيث تجلّى عن مغزاها ، مع الرصانة والحلاوة. وكان العرب – ولا يزالون – يتحفظونه ، فهو معجمهم اللغوي والأدبي الذي ساروا على هُداه ، مهما اختلفت أقطارهم أو تباعدت أمصارهم وأعصارهم. يقول الجاحظ : ” وكانوا يستحسنون أن يكون في الخُطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجُمع آي من القرآن ، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاءَ والوقارَ والرقة وسلس الموقع. وقال الهيثم بن عدي : قال عمران بن حطان : إن أول خطبة خطبتها عند زياد – أو عند ابن زياد – فأعجب بها الناس وشهدها عمي وأبي ، ثم إني مررت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيئ من القرآن ، وما ذلك إلا لفتنتهم بأسلوبه وإحكام نَظْمه ، فإنك تجد العبارة منه بل اللفظة حين تأتي في سياق كلام كاتب أو خطيب أو شاعر تضيئ ، كأنها الشهاب الساطع ، ولا يزال أدباء العرب يستقون من فيضه وينهلون من نبعه الغزير ما يقوّم ألسنتهم ، ويكفل لهم إحسان القول بدون تكلف أو تعمل أو اجتلاب للألفاظ من بعيد.(٢١)

أثر القرآن الكريم في الشعر

لم يكن القرآن مقياسا للمفاضلة بين لغات الأمصار ولا للاحتجاج لفصاحة لفظ دون لفظ، ولا وسيلة لتزيين الخطب فحسب، وإنما كان فوق هذا كله منهلا زاخرا، ينهل الأدباء من ألفاظه ومعانيه، وتتبع مظاهر التأثر بالقرآن في مختلف فنون الأدب العربي موضوع واسع عريض ليس هنا مجال التوسع فيه، لقد جاء الإسلام ليحدد موقفا مبدئيا من كل الأحوال والقضايا التي كانت تشغل الإنسان ، وبالأخص العربي الذ ي نزل القرآن بلسانه ، وفي ذروة تلك القضايا الشعر الذي هو جماع دروس حياة العرب وسجل أمجادهم ، وقد وردت في القرآن الكريم آيات تناولت الشعر والشعراء حملها بعض الباحثين على غير ما وضعت له وبنوا على تصورهم لها أحكاما واهية، حيث رأوا أن القرآن وقف من الشعر والشعراء موقف العداء والمناجزة مما أدى إلى انحسار الشعر أو ضعفه ـ على الأقل ـ في فجر الإسلام ، ويمكن أن نرصد الآيات التي ذكرت الشاعر والشعراء والآيات التي تعرضت للشعرمن خلال قوله تعالى« بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ»(٢٢)وقوله تعالى« وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ×أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ »(٢٣) « وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ»(٢٤) وقوله « أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ» (٢٥) وقوله « وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ × وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ »(٢٦) أما الآية التي ذكرت الشعر فهي « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ»(٢٧) .وبالرجوع إلى استقراء الآراء التي أدلى بها المفسرون في هذه الآيات نجد أنها منصبة على نفي

الشاعرية عن الرسول الكر يم لا على ذم الشعر كما يعتقد البعض ، وباعتبار السياق التاريخي الذي نزلت فيه هذه الآيات والذي احتدم فيه الصراع بين الشرك والإيمان وازداد ت فيه حيرة المشركين حيال هذا النمط المعجز (القرآن) يمكن اعتبار هذه الآيات ردا على العرب الذين دفعتهم حيرتهم إلى وصم القرآن بأنه شعر ووصف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه شاعر لعظمة الشعر في نفوسهم وفخامته في قلوبهم ، ولأن كلمة " شاعر" مرادفة عندهم لكلمة مجنون وساحر وكاهن لأن الناس كانوا يعتقدون أن للشاعر الجاهلي شيطانا أو رئيا من الجن يلهمه أحيانا وأحيانا كان يدفعه بغضاضة إلى الإنشاد (٢٨) ويظهر أن القرآن وصف نمطا خاصا من الشعراء وسمهم " بالكذب والغلو في الإدعاء وتزييف القول ، وهم فئة الشعراء التي كانت تزعم أنها على اتصال بالجن والشياطين تتلقى منها الإلهام وتستوحي منها الأفكار والآراء "(٢٩) وأساطيرهم في ذلك كثيرة لا تستقصى ، من أشهرها قصة هبيد صاحب عبيد بن الأبرص وبشر ابن أبي خازم الأسديحيث يقول هبيد هذا معرفا بنفسه:

أنا "ابن الصلادم" أُدعى الهبيد
عبيدا حبوت بمأثرة
ولاقى بمدرك رهط الكميت
منحناهم الشعر عن مقدرة
حبوت القوافي قومي أسدُ
وأنطقت بشرا على غير كد
ملاذا عزيزا ومجدا وجد
فهل تشكر اليوم هذا معد

وتنطوي القصة الطويلة على تصور يقترن فيه قول الشعر بالشرب من لبن ظباء الجن والري منه؛ وقد قال الهبيد لضيفه الذي امتنع من شرب لبن الظباء لزهومته " لو كرعت في بطنك العس لأصبحت أشعر قومك(٣٠)وقد استمر هذا الاعتقاد عند الشعراء الإسلاميين على سبيل الاستملاح والتظرف ، ويرى بعض من تناول هذه المسألة أن وصف القرآن للشعراء بأنهم (في كل واد يهيمون)وصف مجازي أي أنهم يطلقون لأخيلتهم العنان فتطرق كل موضوع ويصفون ما لم يروا كأنهم رأ وه ، وكان من الطبيعي بعد وصف الطائفة المستهدفة بالهجوم القرآني أن يقع الاستثناء على الشعراء الذ ين يدافعون وينافحون عن الإسلام بألسنتهم وقرائحهم .

لقد أصبح من الوارد ـ الآن ـ أن نقول : إن مدار الآيات الآنفة هو نفي صفة الشعر عن القرآن الكريم ونفي صفة الشاعرية عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أنها اعتنت بمفهوم الشعر عند العرب المشركين وبموقفهم من القرآن لا بموقف القرآن من الشعر، وأنها كذلك وضعت حدا فاصلا بين الشعر والنبوءة ، ذلك الحد الذي عبر عنه سيد قطب تعبيرا نفيسا عند ما تعرض للآية الكريمة " وما علمناه الشعر ـ وما ينبغي له ـ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين" قائلا "وهنا ينفي الله ـ سبحانه ـ أنه علم الرسول الشعر . وإذا كان الله لم يعلمه فلن يعلم. فما يعلم أحد شيئا إلا ما يعلمه الله . . . ثم ينفي لياقة الشعر بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما ينبغي له فللشعر منهج غير منهج النبوءة . الشعر انفعال ، وتعبير عن هذا الانفعال ، والانفعال يتقلب من حال إلى حال. والنبوءة وحي ، على منهج ثابت ، على صراط مستقيم يتبع ناموس الله الثابت الذي يحكم الوجود كله . ولا يتبد ل ولا يتقلب مع الأهواء الطارئة تقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التي لا تثبت على حال ، والنبوءة اتصال دائم بالله ، وتلق دائم عن وحي الله ، ومحاولة دائمة لرد الحياة إلى الله . بينما الشعر ـ في أعلى صوره ـ أشواق إنسانية إلى الجمال والكمال مشوبة بقصور الإنسان وتصوراته المحدودة بحدود مداركه واستعداداته. فأما حين يهبط عن صوره العالية فهو انفعالات ونزوات قد تهبط حتى تكون صراخ جسد ، وفورة لحم ودم ! فطبيعة النبوءة وطبيعة الشعر مختلفتا ن من الأساس . هذه ـ في أعلى صورها ـ أشواق تصعد من الأرض . وتلك ـ في صميمها ـ هداية تتنزل من السماء.(٣٠)لقد بسطنا كيف تناول القرآن الشعر فلم نعد نحتاج للاستفاضة في موقف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذا الفن إذ أنه موقف القرآن عينه ، اللهم إلا إذا أوردنا آثارا من السنة تشرح وتعضد موقف التنزيل ، فلم يكن ـ عليه الصلاة والسلام ـ نابذا للشعر ولا مجافيا له ولكنه وجهه وأنار سبيل سالكه وكان يقول " الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام "(٣١) وكان يسمع الشعر ويثيب عليه ويستنشد حسان هجوه لقريش ويقول له " أهجهم وروح القدس معك " كما استمع لشعر كعب بن زهير وخلع عليه وأصغى بانتباه إلى أبيات من شعر أمية ابن أبي الصلت بلغت المائة بيت في موقف واحد ولعل المواقف التي أشاد فيها الرسول بالشعر أكثر من المواقف التي ذمه فيها ، وقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ " لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا ودما خير

له من أن يمتلئ شعرا " كما ورد عنه في سياق الذم قوله عندما ذُكر امرؤ القيس " ذاك أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار " وقد تكون وراء هاتين القولتين رؤية تتجاوز الشعر إلى موضوعه ففحش امرئ القيس واستهتاره ، وامتلاء صدور الرواة بالشعر بحيث لا يترك للقرآن والكلم الطيب موضعا أمور لا يحبذها الله ولا رسوله، ولا نذهب بعيدا مع من يقول إن الرسول نظم بيتا أو بيتين يوم الطائف ويوم حنين ولكننا نقول : إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يزن الشعر وإنما أحرز معناه " وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلا كسر وزنه كإنشاده لبيت العباس بن مرداس السلمي :

أتجعل نهبي ونهب العبيد
بين عيينة والأقرع
فما كان حصن ولا حابس
يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منهما
ومن تضع اليوم لا يرفع
وقد كنت في الحرب ذا تدرأ
فلم أُعط شيئاً ولم أُمنع

وكان ربما أنشد البيت المستقيم في النادر كإنشاده لبيت ابن رواحة :

يبيت يجافي جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وتكسير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأكثر من بيت من الشعر إنما هو مصداق قوله تعالى " وما علمناه الشعر وما ينبغي له " إذ " في الآية دفع لشبهة الظن أن الرسول الكريم قوي على القرآن بما في طبعه من القوة على الشعر"(١٥) إذن فالنبي الكريم لم يرفض الشعر وإنما رفض منه شعر الشعراء المجان الذين يهدمون القيم الفضلى ، ذلك ما يؤكده استحسانه لقريض حسان وكعب وعبد الله ابن رواحة ممن أذاعوا في شعرهم قيم الإسلام وتعاليمه واتخذوا ألسنتهم مجنا واقيا له ودرعا دلاصا تحميه من سموم ألسنة الأعداء وحدتها ، وقد نظر خلفاء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الشعر نفس النظرة بل إن من بينهم من تناول الشعر بالنقد ووازن وفاضل بين الشعراء وأصدر أحكاما نقدية ما زالت تدرس إلى اليوم في الجامعات المختصة(٣٣) القول بأن طريق القرآن غير طريق الشعر ليس على إطلاقه فقد نهى الإسلام عن بعض ألوان الشعر وشجع على البعض ، وإذا كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قتل بعض الشعراء فقد عفا عن البعض الآخر وقربه ولم يكن الشعر مرد العقوبة وإنما سببها ما اقترفوه من جرائم وما أطلقوه من قول ماجن وخليع والضعف والقوة مردهما إلى موهبة الشاعر وطبيعته وعاطفته " وكما تنفعل النفوس بعوامل الشر تنفعل بعوامل الخير وقد يكون انفعال الشاعر بحب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مثلا أشد وأقوى من انفعال شاعر بحب غادته اللعوب،(٣٤) وأما قول الثعالبي ـ الآنف ـ إن شعر حسان ضعف واستخذى في الإسلام ، فليس مسلما إذ يرى كثير من النقاد أنه ـ على العكس من ذلك ـ قد قوي وسلس وأن فحولته لم تفارقه" ومما يستطرد هنا قصة الأصمعي مع أبي حاتم حيث قال الأول " حسان أحد فحول الشعراء ، قال أبو حاتم : له أشعار لينة ، قال الأصمعي : تنسب له أشياء لا تصح عنه "(٣٥)

أثر القران الكريم في اللغة العربية وأصواتها

القرآن من الله تعالى والله تعالى حكيم وفعل الحكيم كله حكمة، فكل شيء عند بقدر ومقدار، ووصف الله القرآن بقوله عز وجل:« كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ»(٣٦). ومن هنا نشطت الجهود لتتبع الظواهر اللغوية في القرآن الكريم، للكشف عن أسرار هذا الكتاب المعجز، في نظمه ولفظه وصوته.. المعجز في معانيه، المعجز في أثره ولم ينل كتاب في الدنيا دراسات فيه وحوله مثلما نال القرآن الكريم، بيد أنه رغم استبحار ووفرة الدراسات القرآنية، إلا أن القرآن الكريم لا يزال يستنهض الباحثين لمزيد من البحث في آفاقه الممتدة التي لا تتوقف عند نهاية:« قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا».(٣٧) وكل باحث ـ حسبما يتيسر له من أدوات بحثه ـ يكشف الله جانباً من أسرار الكتاب ومع ذلك لا تنفذ الأسرار:«كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا ».(٣٨) إن التأمل المتأني والأمانة والدقة التي يتطلبها المنهج العلمي تقتضي أن نضيف حرف التبعيض (من) إلى العنوان ليصبح "من الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم" وذلك لأن البحث الصوتي له فروع ومستويات ولا يقتصر فقط على بحث الصوت اللغوي، فهناك البحوث الصوتية الفيزيائية، وغير ذلك. وأيضاً يملي علينا العنوان أن نتوقف عند الظواهر الصوتية التي تلفت الانتباه في القرآن الكريم ويظهر فيها وجه من وجه الإعجاز.

القرآن الكريم في التصدي للتحديات التي تواجه اللغة العربية

للقرآن الكريم فضائل كبيرة على اللغة العربية وبقائها وقوتها، ومن هذه الفضائل أن القرآن الكريم حمى اللغة العربية من الانقراض في كثير من الأقطار التي وقعت تحت الاحتلال أو السيطرة العرقية وعلى سبيل المثال فقد وقع المغرب العربي تحت الاحتلال الفرنسي قرابة القرن، وكانت فرنسا قد منعت اللغة العربية في رياض الأطفال والمدارس والجامعات وفرضت اللغة الفرنسية. ومر قرابة القرن الكامل على ذلك وذهب جيل وأتى جيل، لكن هل انقرضت اللغة العربية؟ لا، لأن المسلمين ظلوا مرتبطين بالقرآن الكريم يقرؤونه ويعلمونه أبناءهم فالله سبحانه وتعالي تعبدنا بقراءة القرآن، ثم إن الديانة الإسلامية تفرض على جميع المسلمين حفظ طائفة من آيات القرآن الكريم وتلاوتها كل يوم عدة مرات خلال الصلوات. فقد كانت اللغة العربية في بداية الدعوة الإسلامية محصورة في الجزيرة العربية وبعض الأقطار المحيطة، وبفضل القرآن انتشرت اللغة العربية بعد أن كانت " معظم أقسام العراق والشام، وجميع أنحاء إفريقية الشمالية- من مصر والسودان إلى المغرب الأقصى- كانت غير عربية، ولم تستعرب إلا بعد الإسلام، وليس معني ذلك أن العرب بقوا منطويين على أنفسهم في جزيرتهم على كر الأزمان، بل إنهم كانوا ينزحون من الجزيرة إلى البلاد المجاورة إلا أن قبائلهم التي نزحت قبل حمل رسالة القرآن كانت تفقد صلاتها مع موطنها الأصلي وتتعرض إلى سلسلة من الأحداث والتطورات التي تنسيها ماضيها وتؤدي إلى اندماجها بسكان البلاد التي تستوطنها لقد كانت رسالة القرآن عالمية «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا»(٣٩) وانتشر دعاة الإسلام في أقطار الأرض فدخل الناس في دين الله أفواجا، وأحبوا الإسلام ولغته وتعلموا اللغة العربية حتى يتمكنوا من أداء الشعائر، لذلك انتشرت اللغة العربية في مواطنها الجديدة وانتهت إلى تعريب سكان أقطار واسعة من البلاد المفتوحة تعريباً تاماً.

وقد شهد التاريخ إبان زحف الفتح الإسلامي لأقطار آسيا من أدناها إلى أقصاها، شهد جهوداً بذلها المجاهدون الذين حملوا الإسلام إلى تلكم الأقطار، ونشروا راية القرآن، وعلموا تلك الشعوب خصائص اللسان العربي، حتى استبدلته بلغاتها الأصلية " فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب، وهجرت الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة، وبرزت جماعات العلماء من أبناء تلكم الأقطار البعيدة، وقد نبغوا في فنون العربية، وصاروا أئمتها، الذين يفتون في مشكلاتها، كسيبويه، وابن سينا، والفارابي، والبيروني، والرازي، والخوارزمي، وغيرهم، آلاف من العلماء العباقرة، تنطق آثارهم بعظمة ما استكن في قلوبهم من حب للعربية، وولاء للقرآن لقد وقف القرآن وخصوصاً في الزمن الذي انقسمت فيه الدولة العربية الإسلامية إلى مدن ودويلات حائلاً وسداً دون سريان اللهجات المحلية وانتشارها، وبفضل هذا الكتاب الخالد بقيت الوحدة اللسانية والفكرية قائمة بين شعوب الأقطار العربية، وبفضله كذلك نقرأ اليوم أدب العربية من عصر الجاهلية إلى العصر الحديث لقد حرص المسلمون على حفظ القرآن الكريم وتنافسوا في حفظه وتعليمه للآخرين، ففي كل عام يحفظ مئات الآلف من المسلمين كتاب الله. وهذا الإقبال الشديد على كتاب الله هو صمام أمان للغة العربية وبقائها وقوتها.ونستطيع أن نقول أن الدعوات المشبوهة للعامية ومحاولات الأعداء للقضاء على اللغة العربية ستبوء كلها بالفشل ما دام القرآن موجوداً يعلن خلوده خلود لغته.

النتيجة

ترتبط مكانة اللغة العربية بالدين الإسلامي والذي عزز هذه المكانة نزول القرآن بها وهي لغة العبادة للعالم الإسلامي ويتحتم على كل المسلمين الإهتمام بها. نحن اليوم نعيش فى عصر الذى يبدو فيه زحف العولمة قادماً بما يحمله الناس معطيات تشمل الأدوات والمصطلحات و الأفكار و التعبيرات و الممارسات اللغوية. مطلبون بأن نقابل ذلك الزحف بتنقيح على يفيد من إيجابيات العولمة ويؤمن بالتلاقح الحضارى والتفاعل الخير. أن فضل القرآن الكريم وتأثيره البالغ لم يكن على اللغة العربية في الحفظ والإثراء فحسب، وإنما كان على الكون والخلق والعالمين أجمعين، نخلص من هذا الكلام فى نهايةهذه الورقة بعدة من التوصيات كمايلى:

١. البحث عن الوسائل و الادوات التى

ترغب الطلاب فى تعلم اللغة العربية وذلك من خلال تطوير المناهج وتيسير القواعد.

٢. نشر محبة اللغة العربية فى قلوب الناشئة باعتبار أنها لغة القرآن الكريم الذى بفضله حفظ لنا لغتنا من الضياع.

٣. استخدام المناهج الجديدة لتعليم اللغة العربية فى المدارس والجامعات و الاستفادة من الوسائل الحديثة مثل الحاسوب والبرامج التعليمية.

٤. الاستفادة من تجربة الأساتذة المتخصصة فى اللغة العربية

٥. يجب ضبط النصوص بحركات إعرابية؛تسهيلاً لمطالعتها، وتدريباً للطالب اللغة على تلفظها بشكلها الصحيح.

٦. حثّ جميع المدرسين و الاساتذة اللغة، في مراحل التعليم المختلفة، وتدريبهم أيضاً، على أن تكون لغة التدريس لديهم هي اللغة العربية السليمة الخالية من الشوائب والأخطاء؛ لأنهم، بذلك، سيكونون المثالَ الذي يحتذيه الطلبة، والقدوة التي يتأسون بها.

٧. عقد دورات لغوية وتربوية منظمة، لمعلمي اللغة العربية في مراحل التعليم قبل الجامعي، بإشراف نخبة من ذوي الخبرة والكفاية اللغوية من الأساتذة الجامعيين، وذلك من أجل إطلاع زملائهم وإخوانهم، المشتركين في هذه الدورات على أحدث ما توصل إليه الفكر التربوي في مجال فهم القضايا اللغوية، والأدبية، والنقدية وإفهامها.

ويرتبط بهذا الجانب الإصلاحي للواقع اللغوي عندنا، أمر آخر لا يقل أهمية عن سابقه، وهو أن هناك ضرورة لعقد دورات لغوية مماثلة لأولئك المشتغلين في مجال الإعلام الصحفي، والإذاعي، والتلفازي، بهدف تمكينهم من الاطلاع، بإشراف متخصصين لغويين، على الوجه المشرق للغة العربية، وعلى مدى تأثير الأداء اللغوي السليم على متلقي الإعلام، عندما تكون القناة اللغوية المستعملة للتواصل بين الطرفين نقية وخالية من التلوث، ثم توظيف ذلك كله فيما هم بصدده من كتابة، وقراءة، ومناقشة. وكذلك عقد دورات للمشتغلين في الحقل الشرعي من الخطباء والوعاظ.

الهوامش

١. يوسف/٢

٢. معروف،١٩٨٧م،ص٣٤

٣. كبريت،١٩٧٧م،مجلة العرفان، المجلد٧٦،العدد٨.

٤. آل عمران/١٨٥

٥. السلقينى،١٩٨١م،ص٢٠

٦. الشبكة العالمية، شبكة تفسير

٧. بورتر،١٩٩١م،ص٦٩.

٨. الحجر/٩

٩. ضيف،ص٣١

١٠. الرافعى،١٩٧٤م،ج٢،ص٧٤

١١. الرافعى،١٩٧٤م،ج٢،ص٧٤

١٢. الجندى،ص٢٥

١٣. المصدر السابق،ص٢٥

١٤. انظر للمزيد حول هذه المسألة بحث الدكتور يوسف بن عبد العزيز الشبل بعنوان: أسلوب الالتفات في القرآن الكريم، مجلة الدراسات القرآنية – مجلة علمية دورية محكمة،(العدد٢-١٤٢٩) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص ١٣١-١٧٠ .

١٥. انظر للمزيد حول هذه المسائل: مجلة البحوث والدراسات القرآنية – مجلة علمية محكمة متخصصة بالقرآن الكريم وعلومه تصدر مرتين سنوياً، المملكة العربية السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، العدد (الرابع) السنة الثانية، ١٤٢٨ هـ، بحث الدكتور صالح بن محمد آل أبو بكر الزهراني، بعنوان: أضواء على الإعجاز البلاغي في سورة الفاتحة،ص١٢٦-١٧٦

١٦. ضياء الدين عتر،ص٣٧٢-٣٨٢

١٧. السيوطى،ج١،ص١

١٨. الشهرى،١٤٢٨هـ،ص٢٠٧

١٩. ضيف،ص٣٢

٢٠. الضحى/١-١١

٢١. ضيف،ص٣٣-٣٤

٢٢. الأنبياء/٥

٢٣. الشعراء/٢٢٤-٢٢٧

٢٤. الصافات/٣٦

٢٥. الطور/٣٠

٢٦. الحاقة/٤١-٤٢

٢٧. يس/٦٩

٢٨. غرنباوم،١٩٥٩م،ص١٣٧

٢٩. الناقورى،ص١٩

٣٠. عجينه،ص٤٩

٣١. سيدقطب،ص٣٤

٣٢. القرطبى،ج١٣،ص١٥٠

٣٣. المصدر السابق،ص٥٢

٣٤. المصدر السابق،ص١٥٣

٣٥. درويش،ص٥٠

٣٦. القرطبى،ج١،ص٣٣٨

٣٧. هود/١

٣٨. الكهف/١٠٩

٣٩. اسراء/٢٠

قائمة المصادر

القرآن الكريم

١. بورتر، هارفي، موسوعة مختصر التاريخ القديم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩١م،.

٢. الجندي، أنور، اللغة العربية بين حماتها و خصومها، ، طمطبعة الرسالة، بيروت ،بلاتاريخ

٣. درويش، طاهر، حسان بن ثابت، دار المعارف، مصر، بلاتاريخ

٤. الرافعي، صادق، تاريخ آداب العرب، ط ٢، دار الكتاب العربي،بيروت، ١٩٧٤م.

٥. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، المزهر في علوم اللغة العربية، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. ١، مصر،بلاتاريخ

٦. شاهين، عبد الصبور،محاضرة له بعنوان(التحديات التي تواجه لغتنا الجميلة)، الخميس٢٠٠٦/٩/٩.

٧. الشبكة العالمية، شبكة تفسير: http://www.tafsir.org/vb/showthread.php?t=٤٨٣٢.

٨. الشبل ،يوسف بن عبد العزيز، أسلوب الالتفات في القرآن الكريم، مجلة الدراسات القرآنية – مجلة علمية دورية محكمة،(العدد٢-١٤٢٩) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، الرياض، المملكة العربية السعودية،

٩. الشهري، عبدالرحمن بن معاضة، لهجات العرب فى القرآن الكرى، مصدر عن دار الكتب العلمية ببيروت، ١٤٢٨هـ ،

١٠. ضيف ، شوقي ، تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) ،دار المعارف – مصر – بلا تاريخ

١١. عجينه، محمد، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتنا، العربية محمد علي الحامي للنشر والتوزيع ، تونس،بلاتاريخ

١٢. غرنباوم ، دراسات في الأدب العربي ، ترجمة إحسان عباس وزملائه ، مكتبة الحياة،بيروت، ١٩٥٩ م.

١٣. القرطبي ،ابن عبد البر، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة مناهل العرفان،المجلد ١٣ .

١٤. قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الخامسة، بيروت،الجزء الثالث والعشرون.

١٥. كبريت،محمد،اللغة العربية و التحدّى المستمر،مجلة العرفان.عدد محرّم ١٣٩٥ هـ/كانون الثانى ١٩٧٧ م.

١٦. لسلقينى،إبراهيم،أصول الفقيه الإسلامى،٢٠.ط.الإنشاء-دمشق ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.

١٧. مجلة البحوث والدراسات القرآنية – مجلة علمية محكمة متخصصة بالقرآن الكريم وعلومه تصدر مرتين سنوياً، المملكة العربية السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، العدد (الرابع) السنة الثانية، ١٤٢٨هـ.

١٨. معروف،.نايف، خصائص اللغة العربية و طرائق تدريسها، النفائس-بيروت ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧ م.

١٩. الناقوري، إدريس، قضية الإسلام والشعر، دار التراث العربى، بيروت، بلاتاريخ